المقدمة

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ★

وتلك هي أمة من أمم المسلمين، قد خلت، بعد أن شغلت الدنيا لأكثر من ستة قرون من عمر الزمن، وتبوأت أعلى مراتب العزة والقوة والرفعة، وحملت عن المسلمين كافة أعباء الجهاد في سبيل الله على جبهة الغرب (أوروبا). فنعمت أقطار العالم العربي الإسلامي بالهدوء والاستقرار.

لقد انطلقت تلك الأمة؛ المعروفة باسم الأتراك العثمانيين؛ من خلال مفهوم الجهاد في سبيل الله، حيث كانت الحملات الصليبية قد انحسرت عن أرض بلاد الشام، وحيث كانت حملات المغول التتار قد دمرت رمز الوحدة الإسلامية التي تمثلت بالخلافة العباسية. غير أن حملات الفرنج الصليبيين لم تكن قد وصلت إلى نهايتها، وكذلك خطر المغول التتار لا زال جاثماً على صدر المسلمين. فكان على هذه الأمة الصغيرة - العثمانية - أن تشق طريقها عبر متاهات مظلمة، وفي وسط أعاصير هوجاء تعصف من كل اتجاه.

وكان أخطر ما في الأمر هو تمزق الجبهة الداخلية الإسلامية بين مجموعات من مراكز القوى المتصارعة في معظم الأحيان، والمتعاونة في بعض الأوقات. فكان لا بد لكل عمل ناجح من أن يبدأ بتوحيد الجبهة الداخلية، وبناء القاعدة الصلبة، ولقد استغرق هذا العمل زهاء قرنين من عمر الزمن استطاع العثمانيون خلالها دمج كل

★ الجزء الأول - سورة البقرة - الآية: ١٤١.

امارات آسيا الصغرى (الأناضول) في دولة واحدة، وأمكن بذلك الانسياح إلى أوروبا، وجاء فتح القسطنطينية، تتويجاً لتضحيات ضخمة وجهود جبارة عبر تلك الحقبة الزمنية المتطاولة. غير أن فتح القسطنطينية لم يكن بدوره إلا البداية لمرحلة جديدة، فقد أصبحت الدولة العثمانية ـ الإسلامية في قلب اوروبا، وبات لزاماً عليها بالتالي أن تمضي نحو أهدافها بمزيج من السياسة والحرب. وحققت الدولة العثمانية نجاحاً كبيراً طوال قرنين آخرين من عمر الزمن. وعرفت الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة نوعاً من الهدوء والاستقرار بسبب انصراف الدول الأوروبية ـ الغربية ـ لحل مشكلاتها الذاتية وصراعاتها وحروبها الداخلية والخارجية. ورافق ذلك نمو القدرة الذاتية لعدد من الدول، فقد باتت روسيا وهي تشكل دولة عظمى على التخوم الشمالية للدولة العثمانية، وتعاظمت قدرة انكلترا وفرنسا تجارياً وعسكرياً ـ وارتبط ذلك بالثورة الصناعية التي شكلت الحافز لما عرف باسم (الاستعمار). وكان على الدولة العثمانية أن تجابه التحديات الجديدة التي لم تعد تحمل راية (الحملات الصليبية) وإنما استبدلتها بالنزعات الدينية، فرفعت روسيا القيصرية راية (حماية الارثوذكسية) للتدخل في أمور الدولة العثمانية، مع رفع راية (تحرير الاخوة السلاف) لاضعاف الدولة العثمانية في اوروبا، وأخذت فرنسا على عاتقها حماية (الكاثوليكية) فيما عملت بريطانيا بشكل مباشر وبالتعاون مع الدولة العثمانية لضمان أعمالها التوسعية.

لقد استطاعت الدولة العثمانية الاحتفاظ بقوتها وقدرتها، حتى إذا ما جاءت حملة نابليون بونابرت إلى مصر، بدأت عجلة الأحداث بالتسارع. لقد أدركت كافة الدول الطامعة بالتوسع أن قوة الدولة العثمانية هي في وحدة جبهتها الداخلية، وفي وحدة قيادتها لأقطار العالم الإسلامي، وهكذا بدأ العمل لتفجير الدولة العثمانية من الداخل ـ بكافة الوسائل والسبل التي عرفتها شعوب العالم الإسلامي. وفي تحالف غير مقدس، بدأت عملية تمزيق العالم الإسلامي بداية من المحيط الخارجي لهذا العالم، ووصولاً إلى قلبه. ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية احتمال ثقل الهجمة الشاملة على كافة جبهاتها. وبدأ البناء الضخم بالتداعي. حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى، كانت الهجمة قد وصلت إلى نهايتها، وتمزقت الدولة العظمى، ولم يبق منها إلا ما هو معروف باسم

(دولة تركيا) التي تنكرت لأمجاد السلف في محاولة للمحافظة على بقية موطن لتلك الأمة التي خلت.

ومع انهيار ذلك البناء الضخم، وحتى قبل انهياره، كانت الصورة المشرقة للدولة العثمانية قد باتت مشوهة حتى في أنظار جماهير تلك الدولة وشعوبها، فلا غرابة إن كانت هذه الصورة أكثر تشوهاً في أنظار الحاقدين من الصليبيين وغيرهم. ونشأ عن ذلك صراع فكري عنيف بين أنصار الدولة الإسلامية وأعدائها. وسيستمر هذا الصراع يقيناً طالما بقي المسلمون ـ من عرب وغير عرب ـ يبحثون عن مستقبلهم عبر البحث عن (وحدة الجماعة).

لقد كانت الدولة العثمانية، بحق، هي الجسر الذي وصل الماضي بالحاضر، فما يعيشه العالم العربي ـ الإسلامي من صراعات وتناقضات، وما يعيشه العالم الإسلامي من صعوبات ومشكلات، ما هي بمجموعها إلا استطالات لما نشأ عن انهيار البنيان الضخم للدولة العثمانية.

لقد اتهمت الدولة العثمانية، بظلم أو بغير ظلم، أنها سبب تخلف أقطار العالم الإسلامي عامة وأقطار العالم العربي ـ الإسلامي بصورة خاصة، وأسهمت الدول العظمى ـ الغربية خاصة ـ بتعميق هذا الاتهام وتثبيته، منتقلة منه إلى مهاجمة الإسلام ذاته على أنه فيما زعموا ـ سبب التخلف، وتجاهل هؤلاء جميعاً أنه لولا الإسلام ما كانت الدولة العثمانية الإسلامية التي حكمت الدنيا طوال تلك السنين. وتجاهل هؤلاء أيضاً، ما سببته الحروب المستمرة والحملات الصليبية المتتالية، من استنزاف لقدرة الدولة المجاهدة، حتى انتهى الأمر بها إلى الانهيار.

لقد قيل بأن الدولة العثمانية ما هي إلا (دولة الحرب) وأنه ليس لدى العثمانيين إلا (فن الحرب) ورغم ما يتضمنه مثل هذا القول من الظلم لتاريخ الدولة وانجازاتها عبر القرون، إلا أنه قد يكون برهاناً حاسماً على الدور الذي اضطلعت به الدولة العثمانية في حماية الإسلام وأهله، وفي الدفاع عن وجود هذه الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس.

لم يكن فن الحرب العثماني في حقيقته إلا استطالة لفن الحرب الإسلامي. فقد عرف الترك كما عرف سواهم من أمم الأرض وشعوبها فضل (المذهب العسكري الإسلامي) المتكامل مع (العقيدة الدينية الإسلامية) والمشتق عنها. ولهذا فعندما انطلق الترك من جوف آسيا، إلى طرفها الشرقي، جاؤوا ومعهم ما تعلموه من هذا المذهب العسكري. وعملوا على تطويره باستمرار بمثل ما فعله السلف، حتى وصل إلى ما وصل إليه من الرفعة والسمو. ولقد تألق المذهب العسكري الإسلامي طوال قرون متتالية، وأصبح منهلاً ثراً تعلم منه كبار قادة الحرب ممن رفع الغرب اعلامهم على أنهم (أساتذة الحرب وكبار قادتها في العصر الحديث) فقائد روسيا بطرس الأكبر، وملك السويد (شارل) وقائد المجر (سويبسكي) ومن جاء بعدهم من أمثال سوفوروف وكوتوزوف وسواهم كثير، لم يبرزوا في عالم فن الحرب إلا من خلال ما خاضوه من حروب، وما تعلموه من الخبرات والتجارب على أيدي العثمانيين المسلمين.

ولكن، وعندما استنزفت الحروب قدرة الدولة العثمانية، بدأ التنكر للعطاء الثر الذي قدمه العثمانيون في مجال (فن الحرب) كما في بقية المجالات. وأسدل ستار كثيف على تلك العطاءات الخيرة، والانجازات الرائعة. وقد يكون من الصعب الإحاطة الشاملة بقصة الجهاد الشاق الذي قاده العثمانيون عبر قرون متتالية، كما أنه من الصعب أيضاً التعرض لكافة تفاصيل تلك القصة ودقائقها، غير أن بقية ما حفظه التاريخ منها، هو أمر كاف لتقويم ما تم انجازه.

هكذا يأتي هذا المجلد الخامس من (فن الحرب الإسلامي) ليختص بالعهد العثماني، وليصل الماضي بالحاضر، وليحفظ لهذه التجربة التاريخية بعض ما هي جديرة به من التقدير. وليست القضية - مرة أخرى - هي قضية وقوف على الأطلال، أو الصراخ والعويل على - أمة قد خلت -. بقدر ما هي إفادة من خلاصة هذه التجربة التاريخية التي ألقت بظلالها على الأمة العربية - الإسلامية خاصة، وعلى الشعوب الإسلامية عامة، في الأزمنة الحديثة، وربما في أفق المستقبل البعيد. وقد تكون الأمة العربية - الإسلامية، أشد لصوقاً بهذه التجربة التاريخية، وأكثر حاجة لورود منهلها. وليس ذلك بسبب الدور الذي اضطلعت به الدولة العثمانية في رفع راية الإسلام

والدفاع عن الأمة العربية ـ الإسلامية، فحسب، وليس ذلك أيضاً لأن هذه التجربة هي قسم متلاحم بتجربتهم الذاتية عبر التاريخ، بل لأن هذه التجربة ـ واستطالاتها ـ ستبقى راسخة وثابتة في أساس ما تعيشه الأمة العربية ـ الإسلامية من التناقضات المثيرة والمفارقات الغريبة. وتكتسب التجربة التاريخية، وكل تجربة تاريخية، قيمتها وفائدتها من خلال ما تقدمه من معطيات تضيء سبيل المستقبل، وهذا مما يؤكد مدى الحاجة لارتياد هذا المنهل الذي أحيط بالحواجز والسدود لمنع ارتياده، امعاناً في تكثيف الضباب على أفق المستقبل.

بسام العسلي